الماضى القريب والماضى البعيد

فى أمثال الرومان أن « الكابيتول قريب من صخرة تربيا » . أما الكابيتول فهو ذلك التل المرتفع من تلال روما الذى كان عليه موطن الحكم . وأما صخرة تربيا ، فهى صخرة إلى جانب من الكابيتول كان يلقى من فوقها المجرمون المحكوم عليهم بالموت ، فيلقون حتفهم . ويقصد الرومان بهذا القول أن الارتفاع يعقبه الوقوع .

هذا من أمثال الرومان . والناس فى هذه الأزمان يرتقون الكابيتول عن طريق ممهد ذى درجات عريضة ؛ ليشهدوا ما فوقه من قصور صارت متاحف ، وليطلّوا من خلف التل على المكان السحيق الذى كان يلقى فيه المجرمون . يرتقى الناس فى هذا الطريق وهم يذكرون هذا المثل ، وقد جذب أعينهم تمثال مرقس أوريليوس الإمبراطور الفيلسوف ممتطيا جواده . وقد سلم هذا التمثال من عصور التعصب والجهل ، أيام القرون الوسطى ؛ إذ ظن المؤمنون أنه تمثال قديس ، لما اتسم به من سكينة ووقار . وقد يشغلهم منظر هذا التمثال الرائع وهم صعود ، عن أن يلقوا نظرة عابرة على تمثال صغير من البرونز إلى يسارهم هو تمثال رينزى أو كولادى رينزى ، وقد يلقون نظرة عليه دون أن يأبهوا به ، مع أن صاحب هذا التمثال أقرب من يصدق عليهم مثل الرومان القائل إن الكابيتول قريب من صخرة تربيا ، وهو يمثل شخصية فذة لا تزال تتكرر وبخاصة فى تاريخ إيطاليا ، فى الماضى البعيد والماضى القريب ؛ ومسلك شعب روما نحوه ، هو دائما مسلك الإيطاليين نحو رجالهم الذين خدموهم من قبل ومن بعد .

فى أول القرن الرابع عشر الميلادى كان النزاع المستمر بين البابا والإمبراطور قد بلغ مداه ، ذلك النزاع على السلطة الدنيوية الذى ابتدأ فى القرن الحادى عشر واستمر إلى القرن الثالث عشر . فالبابا يرى أنه صاحب

الكلمة العليا فى جميع البلاد المسيحية ، وان سلطانه الدنيوى يشمل جميع المسيحيين كما يشملهم سلطانه الدينى . والإمبراطور ، وكان فى ذلك الوقت عادة من الأمراء الألمان ، يرى أن سلطان البابا مقصور على الأمور الدينية ، وأن الأمراء إذ يخضعون له فى هذه الأمور ، لا ينزلون عن سلطانهم الدنيوى . ومن هنا نشأ هذا النزاع الذى انتصر فيه البابوات أكثر من مرة ، وأذلوا أباطرة الدولة الرومانية المقدسة أكثر من مرة ، وهُزم فيه البابوات غير مرة ، ولم يتورع هؤلاء الأباطرة عن إذلالهم غير مرة . وكانت هذه الحرب السجال وبالاً على الإمبراطور وعلى الكنيسة . فالكنيسة تستعمل سلطانها الدينى على قلوب المؤمنين ، وتستعمل سلاح الحرمان الرهيب فى قتال الإمبراطور ، والإمبراطور يستعمل سلاح التنديد برجال الكنيسة وبالبابا نفسه ، ويشكك الناس فى طهارة معيشتهم . وينتصر للإمبراطور أمراء وملوك يرجون منه خيراً ، وينتصر للبابا أمراء وملوك منافسون للإمبراطور .

فإذا أهلَّ القرن الرابع عشر كان هذا التنافس قد بلغ مداه بانتصار البابا فى الظاهر والقضاء على أسرة هوهنشتاوفن التى كان منها الأباطرة . ولكن هذا النصر لم يكن بلا ثمن ، فلقد انتصر البابا بفضل مساعدة ملك فرنسا ومؤازرته ، وفى سبيل النصر لم ينظر البابا إلى الثمن الذى كان عليه أن يدفعه .

جاء القرن الرابع عشر فإذا البابا لم يعد صاحب السلطان على المسيحية من عاصمة ملكه روما ، وإذا هو أسير أو كالأسير يعيش فى بلدة بإقليم متاخم لفرنسا . أما البلدة فهى أڤنيون ، وأما الإقليم فهو جنوب فرنسا الآن . لم يكن هؤلاء البابوات الذين اتخذوا أڤنيون مقاما أسرى فى الحقيقة ، فهم الذين رضوا لأنفسهم بهذا الوضع ، فلقد بلغ من سيطرة ملك فرنسا أن صار أكثر الكرادلة الذين ينتخب من بينهم البابا من الفرنسيين وصار البابوات ينتخبون من الفرنسيين كذلك . فالبابا كلمنتيو الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) . وهو أول من اتخذ أڤنيون مقاما ، كان من أهل جسكونيا ، وقد أصغى إلى نصيحة فيليب الجميل ملك فرنسا فلم يطأ بقدمه أرض روما . وانتخب البابا چيوڤانى الثانى عشر بعد أن ظل كرسى البابوية خاليا سنتين ، فلم يكتف بالإقامة ببلدة أڤنيون كسلفه إلى أن يحزم أمره على العودة إلى عاصمة المسيحية ، بل اتخذ له مسكنا ، وزاد فى بنائه ، حتى جعل منه قصراً و حصنا ، وهو الذى

يشاهد فى تلك البلدة إلى اليوم . وهكذا شعرت روما بأنها لم تعد عاصمة المسيحية .

ماذا كان تاثير ذلك فى روما ؟ وماذا كان تأثيره فى إيطاليا ؟

أما إيطاليا فكانت غارقة كعادتها فى انقساماتها والتنازع بين إماراتها ودولها المستقلة ، فهى مسرح للحروب فى سبيل المطامع ، يقوم بالقتال رجال حرب مأجورون من رجال الشمال الأشداء : ألمان وسويسريون ومجريون ؛ وهم رجال أشداء ، ولكن ليس من صالحهم أن تنتهى هذه الحروب وقد اتخذوها مهنة . وإذا انتهى هؤلاء الأمراء الإيطاليون وانتهت هاته الجمهوريات من المشاحنة ، فما مصير هؤلاء الجنود ؟ وأى عمل يمتهنون ؟

إذن فلتستمر هذه الخلافات ، ولتبق هذه المطامع تعمى الأبصار عن الطريق السوى . ولكن بين الناس من ليسوا أمراء ، وبينهم من لا يتجهون اتجاه الأمراء فى المطامع ، وفى إيطاليا حول ذلك العصر زادت العيون تفتحا ، وأخذ الناس يقبلون على هذه الحياة الدنيوية ويحاولون فهمها ، وزاد الميل بينهم إلى الدراسة وإلى لذة الحياة العقلية ، فإذا هم يجدون بينهم كنزاً كان مطموراً . فهذه كتب اليونان والرومان بين أيديهم منها شئ كثير ، وفيها من الإنتاج الفكرى كل ماهو عظيم . وهذه آثار الرومان والتماثيل التى أخرجت من باطن الأرض تدل على مجد قديم ، فما أبعد الفرق بين الماضى المجيد ، والحاضر عندئذ ! ولكن ما السبب فى هذا الفرق ؟ ولماذا نزلت إيطاليا من عليائها وصارت نهبا للبرابرة من شعوب الشمال ؟ ألا يمكن العودة إلى ذلك المجد القديم ؟ بلى ! والبرهان على ذلك أن شاعرا حديثا أخرج معجزة من معجزات الأدب لا تقل عن آثار الأوائل . ألم يخرج دانتى فى تلك الأيام ملحمته « الكوميديا الإلهية » صاغها شعراً ، فأحيا الآمال فى قلوب المفكرين من أبناء وطنه ؟ فملحمته لم تكن شعراً نادراً بقدر ما هى عمل من أعمال الإرادة يدل على أن الإيطاليين ورثوا المجد القديم ، وأن لغتهم الحديثة قادرة على منافسة اللغات القديمة ، وفيها من الحياة ما قد يبلغ مبلغ القديم .

زاد إقبال الناس على الدراسات يستزيدون منها ، ويقارنون بين الماضى المجيد والحاضر وما فيه من تخاذل وانحطاط ، فظهر تياران من التفكير : فريق انصرف إلى الدراسات القديمة ، ونبذ كل تعاليم الكنيسة ، ورأى فيها سبب

الانحطاط ، ومجّد الوثنية وآثارها ؛ وإلى هذه الناحية اتجه مارسيليو وأوكام ، ويمثل هذه الروح فى عالم الأدب بوكاتشيو . وفريق رأى أن الدراسات القديمة لا تتعارض مع المسيحية ، وأن ما يؤخذ على الكنيسة من مساوئ إنما هو من عمل رجالها لا من فكرتها ، وفى طليعة الأدباء الذين نحوا هذا النحو فى ذاك العهد بترارکا .

هذا فى إيطاليا . أما فى روما فقد تأثر المفكرون بهذه النهضة الفكرية ، وظهر هذان التياران ، إلا أنه من الطبيعى أن يكون التيار الثانى غالباً . فروما لم تنس انها عاصمة المسيحية كما كانت عاصمة الدولة الرومانية العظيمة ، وقدظلت روما ألف سنة عاصمة المسيحية ، وهى فى تلك الأيام لم تعد كذلك ، وقد هجرها هؤلاء البابوات الفرنسيون ، فالمدينة فقدت مجدها القديم ، وهى تكاد تفقد مجدها الحديث ، وقد سادتها الفوضى وصار أهلها بلا معين أمام أسر أشرافها المتنازعين المتنافسين ، المتقاتلين بالأجراء من جنود البرابرة . ولم تعد تخترق شوارع المدينة تلك المواكب الدينية العظيمة التى كانت تخفى ما فيها من مناظر الفاقة . ولقد استطاع البابوات أن يعيشوا فى أڤنيون فى كنف ملك أجنبى ، ولكن الرومانيين لا يستطيعون أن يعيشوا بغير البابا ؛ ولذلك كانوا فى تلك الفترة يرسلون الوفود إلى بابوات أڤنيون يلتمسون منهم العودة إلى مدينتهم الخالدة . ولكن هؤلاء البابوات يؤثرون الأمن والدعة فى حمى الملك الأجنبى ، على العودة إلى عاصمتهم وفيها الأحداث والاضطرابات ، وبين أشرافها النزاع والنضال

كان فتى من فتيان مدينة روما ، فى نحو التاسعة عشرة من عمره ، يشهد هذه الأحداث ويفكر فيها ، فتتألم نفسه ؛ ولكن ماذا يفعل وهو صغير لا يقوى على شىء ، وهو فقير ليس فى يده شىء ؟ فوالده صاحب حانة صغيرة لا يمتلك إلا قوت يومه . إنه لا يستطيع أن يفعل غير ما يفعله الفتى الجاد لنفسه ، فهو يقبل على تثقيف نفسه ويقبل على الدرس إقبالا عجيباً ، فيعكف على دراسة المؤلفين القدماء من يونانيين ورومانيين ، ودراسة التوراة والإنجيل ، ويتعلم النحو منه والفلسفة والخطابة ، ويستظهر أقوال المؤلفين القدماء . وهو فى خلال ذلك يجوب أنحاء المدينة باحثاً عن آثار روما القديمة التى أخفاها الإهمال ، فاحصًا لها دارساً تاريخها ، ومن هذه الآثار كان يستوحى المجد الغابر ، ويشعر بالذل الحاضر .

بلغ رينزى السن التى كان عليه فيها أن يتخذ له مهنة ، فجنح إلى مهنة القلم ؛ لأنها أقرب إلى مواهبه وقلبه ، وصار محامياً ، وكان بارعاً فى صناعة القلم ، بليغ العبارة . ولكن الله وهب له موهبة كان لها تأثير بالغ فى حياته ، فقد كان ذلق اللسان ينفذ حديثه إلى القلوب ، ويتسلط بالقول على الجماهير . وكانت أحداث ذلك الزمن وما فى المدينة من فوضى واضطراب وإهمال وفاقة ، أكبر مجال للقول ، فهى تبعث أبناءها على أن يندبوا حظها ، ويقارنوا بين ما كانت عليه من عزة ورخاء ، وما هى فيه من ذل ومسغبة . وفى هذا المجال ظهر نجم رينزى وأخذت شهرته تتسع ، وأخذ يجد السامعين والمصغين إلى أقواله ، فتجول فى نفسه خواطر وآمال استقاها من تاريخ تلك الأرض التى لا يزال يطؤها ، ومن تلك الدماء التى يظن أنها تجرى فى عروقه صافية ، كما يظن أهل روما .

كان أهم ما يشغل المدينة فى تلك الأيام خاصة ، كما يشغل أهل إيطاليا عامة ، عودة البابا إلى مدينته الخالدة . ولقد توفى البابا نديتو الثانى عشر (١٣٣٤—١٣٤٢) فى قصره بأڤنيون ، وانتخب البابا كلمنتيو السادس (١٣٤٢—١٣٥٢) فرئى تأليف سفارة من كبراء المدينة ومتوسطيها وعامتها لتهنئته ولتسليمه السلطة الوطنية فى المدينة ، والالتماس منه أن يتولى كرسى القديس بطرس . وكان فى هذه السفارة شاعر النهضة العظيم بتراركا ، وكان فيها كولادى رينزى . وما لبث بفضله أن برز صوت الشعب ظاهراً ؛ فهو يتكلم فى عبارة طلية ويذكر أنه منـدوب الشعب ونائب الفقراء والأرامل والأيامى ، ويعرض الحـوادث وما حاق بروما بسبب ابتعاد البابا عنها ، ويتحدث حديثاً قريباً إلى تلك المثل التى كان يحلم بها الشاعر بتراركا ، حتى لقد تصور الشاعر أنه مبعوث من العناية جاء ليحقق تلك الآمال الجليلة التى تجيش فى نفسه نحو بلاده فيرد إليها الحرية ، ويرد إليها النظام ، ويعود زعيم المسيحية إلى مدينته ، وتحيا الإمبراطورية الرومانية ، كما كانت وليدة ، إرادة الشعب الايطالى ، وتصير روما بفضل ذلك سيدة العالم !

هكذا شعر الشاعر العظيم حين رأى نائب الشعب يتكلم ، وهكذا عقدت بينهما أواصر صداقة متينة .

وجد هذا الخطيب الجمهورى أذناً صاغية لدى البابا نفسه ؛ فقد تحدث إليه شارحاً ما فيه الشعب الرومانى من بؤس وضيق ، وما عليه النبلاء من صلف

وظلم . وكان البابا رجلا مثقفاً عليما بأصول الخطابة ، فقد كان أستاذاً للدراسات الدينية فى جامعة باريس ، وكان مستشاراً لدى فيليب دى ڤالوا ، فسُرَّ من الفتى الرومانى الذى يعرف فنون القول ، على أن أحد أمراء الكنيسة ، وهو الكردينال چيوڤانى كولونا ، كان حاضراً ، فلم يعجبه ما قاله الخطيب الشعبى فى حق بنى عمومته من أشراف روما ، فعرف كيف يباعد بين كولا وبين البابا ، وعرف كيف يغضب عليه البابا ، فمنعه من دخول القصر . وعاش كولا بعض الوقت فى تلك المدينة وقد هجره زملاؤه وتجافاه الناس ، فكان يقف كما يقول « فى الشمس مثل الكلاب » وكان رجال الكنيسة يقاطعونه ، وقد أضر به الجوع حتى كاد يسأل الناس .

على أن بترارکا ما علم بما وصل إليه الصديق حتى أخذ يسعى ويسعى ؛ ليزيل ما بنفس الكردينال منه ، حتى رضى عنه هذا السيد ، وتوسط له لدى البابا ، فعينه البابا عضواً فى المجلس البلدى بروما ، وحمله رسالة يثنى فيها البابا عليه وعلى إخلاصه وعلمه ، وحماه من الأشراف الذين كانوا يريدون مؤاخذته على ما فاه به عنهم .

كان مركز الزعيم يقوى لدى الشعب على مر الزمن ، وكان أعداؤه من الأشراف يزدادون . ففى ذات يوم من شهر إبريل سنة ١٣٤٤ كان المجلس ينظر فى أمر من الأمور ، فإذا الخطيب يقف فجأة ، وقفة شيشرون فى الماضى عندما أخذ فى اتهام كاتلينا ، وإذا هو يلقى خطاباً يحمل فيه على القضاة والحكام والأشراف ويقول : « لستم وطنيين . أنتم لا تبغون الخير بل تعملون للشر . إنكم تسفكون دماء الشعب ، وفى كل شارع وفى كل بيت تلجأون إلى النهب والعنف ، ترفضون كل نظام ، تدنسون كل مقدس ، تغتصبون الحقوق ، وتدَّعون الامتيازات ، وتتهربون من القوانين . . . »

سكت الأعضاء ، وقد أدهشتهم هذه الجرأة ، لكن أحد أفراد أسرة كولونا الشريفة ، قام فى التو وقصد إليه ولم يكلمه بل صفعه !

بعد هذا الحادث عدل الخطيب عن طريقته واتخذ طريقاً آخر ، فكان يلجأ إلى التلميح بدل التصريح ، وكان يفضل الإشارة ، فيعلق صوراً فى أمكنة ظاهرة من روما ترمز إلى مجد روما وعزها الماضى وذلها الحاضر .

وفى ذات يوم عثر على لوحة أثرية كتب عليها قانون ملكى ، فيه أمر من مجلس

الشيوخ الرومانى بمنح الإمبراطور فسبزيانو سلطة الإمبراطوريه ، فجمع أعضاء المجلس وحاضرهم فى هذا الأمر ، مظهراً ما كان لمجلس الشيوخ من عظمة ، وكيف كان سلطانه أقوى من سلطان الإمبراطور نفسه ؛ إذ كان منه يستمد الإمبراطور السلطة .

ثم عدل رينزى عن سياسته فى الحملة على الأشراف فصار يخالطهم وصاروا يدعونه إلى دورهم ، وأقلع عن تحديهم علناً . وكانوا يعتدون بأنفسهم ، فلا يظنون أن أحداً يجرؤ على مناوأتهم . وزادت الخلطة بينه وبينهم ؛ ففى ذات مرة كان مدعواً إلى دار أسرة كولونا ، وقال له أحدهم ممازحاً : « إنا لنمالئك إذ نرى أوداجك قد انتفخت ، وقد تعتبر دوقا إن لم تكن إمبراطورا . » فأجابه رينزى : « سأكون بلا ريب إمبراطوراً ، والويل عندئذ لكم ! » وحينئذ دعاه الحاضرون إلى أن يلقى عليهم بعض القول صائحين : « ألق موعظة من مواعظك » ورفعوه فوق مائدة . فأخذ يخطبهم مؤنباً طاعناً فيهم وفى أعمالهم ؛ وكلما زاد فى التأنيب ازدادوا ضحكا !

مع كل هذا ، وفى غفلة من هؤلاء الأشراف كان رينزى يدبر أموره ، ويعد العدة لعهد أمن وإصلاح فى روما ، فكان يجمع الأنصار وينظم الرجال من بين قوم يريدون لبلدهم خيرا .

وفى ١٩ مايو سنة ١٣٤٧ ، وكان زعيم أسرة كولونا أقوى الأسر الشريفة خارج روما مع رجاله ، جمع الزعيم الشعبى أنصاره قبيل الفجر ، وكان قد أخذ فى الصلاة منذ منتصف الليل ، وخرج إليهم من الكنيسة ، وقد لبس الدرع إلا أنه كان عارى الرأس ، وكان إلى جانبه مندوب البابا الذى انضم إليه ، وتبعه أنصاره فى حفل حاشد ، وعلى رأسه تخفق ثلاثة ألوية ترمز إلى روما والبابوية ، وسار فى موكب إلى قصر الحكم حيث خطب الناس خطبة عظيمة ، ثم قرأ أحد أعوانه النظام الجديد الصالح الذى يراد به الخير ، والذى يكون فيه السلطان للشعب لا للأشراف ، حيث يؤخذ المذنب بجريرته دون نظره إلى مركزه الاجتماعى ، ويسود الأمن وتسود الطمأنينة .

وصاحت الحشود تضع السلطة فى يد الزعيم ، وله أن يختار من الألقاب ما يشاء ، فليكن طاغية ، دكتاتورا فى سبيل الإصلاح ، فليكن دوقا ، دوتشى ، أو ما شاء . ولكن الزعيم يقنع بلقب رومانى معروف هو « زعيم

الشعب » ليحمل لواء الحرية والعدل فى الجمهورية الرومانية المقدسة .

هكذا تم هذا الانقلاب من غير أن يسفك دم . وأخذ رينزى يعمل فى الحال على تنظيم المدينة وحفظ الأمن . وترامت أنباء هذا الانقلاب إلى الخارج ، وأرسل رينزى الرسل ، والرسائل ليعلم من لم يعلم من الأمراء بهذا الانقلاب . ولم تكن يداه خاليتين من العمل داخل رومـا نفسها ، فمن البديهى ألاّ يرضى الأشراف عن هذا النظام . وكان ستفانو كولونا زعيم الأسرة أول من غضب حين ترامت إليه الأنباء وهو فى رحلته ، فعاد فى التو إلى روما ليطرد الدعى فى رأيه . وكان ستفانو حديديًّا شارف التسعين من عمره ، ومع ذلك يمتطى جواده بلا مساعد ، وله من الأولاد والحفدة عدد كبير ، ألفوا السلاح ورضعوا من دماء أسرة أورسينى خصومهم منذ نعومة أظفارهم . وقد مرت بستفانو أحداث كثيرة فى عمره الطويل ، فهل يهتم بجنون هذا المهرج !

عاد ستفانو قاصداً روما ، فما أشرف عليها حتى جاءه رسـول الزعيم يعلنه بالعودة من حيث أتى ، فكان جوابه فى بساطة : « قل لهذا المجنون إنى إن غضبت عليه بعض الغضب ، فسألقيه من نافذة القصر » . وسمع الزعيم بهـذا التهديد فقرع أجراس المدينة ، وإذا الشعب يحتشد فى جموع هائلة ، وإذا ستفانو يضطر أن يتراجع أمام المجنون المهرج ويعود أدراجه .

أصدر الزعيم بعد ذلك أمراً إلى جميع الأشراف أن يلزموا ضياعهم وقصورهم واحتل رجاله الجسور والمواقع المحصنة ، ودمر ما أقامه الأشراف من متاريس وحصون داخل المدينة ، وقبض على رؤساء العصابات الإجرامية فى روما وفيما حـولها من بلاد ، وطلب إلى الأشراف أن يوافوه إلى مقر الحكم حيث دعاهم إلى أن يقسموا بأن يخضعوا لقوانين الدولة ، ثم دعا من بعـدهم القضاة ثم المحامين ثم التجار ليقسموا يمين الإخلاص . وأقام محكمة العدل ؛ لتفصل فى الخصومات ، ولمعاقبة المجرمين ، فاستتب الأمن فى روما وفيما حولها من البلاد .

وكان الزعيم يعمل ليلا ونهارا للنظر فى أمور الدولة وفى مخاطبة الدول والأمراء ، وهو يملى على كتّـابه رسائل بليغة يشرح فيها أغراضه ومراميه لخير روما وإيطاليا شرحاً وافيا ، فهو يطلعهم على ما حققه لروما من سعادة ، وهو يرجوهم أن يرسلوا إليه مندوبين وخبراء للجمعية الـكبيرة التى تحقق إقامة الدولة الصالحة ، وتعمل فى روما على عقد معاهدة تحالف عام لتحرير البلاد الإيطالية

عامة من استعباد الأجنبي ، وكانت هذه الآمال التى كانت تجيش فى صدره تجيش فى صدر كل ايطالى . ولئن كان من العجيب أن تجد هذه الآمال من يدعو إليها ويعمل على تحقيقها فى زمن انقسمت فيه المدن والإمارات الإيطالية وتفرقت شيعاً ، وكان يحارب بعضها بعضاً ، مستعينين بالقواد والجيوش الأجانب. وكان بعض الأراضى الإيطالية تابعاً لملك فرنسا ، وبعضها تابعاً لملك أسبانيا ، وبعضها تابعاً للإمبراطور الألمانى ، فليس عجيباً أن تهز هـذه الدعوة القلوب وأن يجد كولا دى رينزى شاعراً عظيما ومفكراً جليلا مثل بترارکا يقول : « أكرموا أيها المواطنون هذا الرجل . أكرموه فهو يكاد يكون رسول العناية ، ونعمة نادرة من نعم الله ، وابذلوا حياتكم فى سبيل سلامته . »

كان الأشراف يتربصون به السوء ، وكان الزعيم الشعبى وقد زادت سلطته يتحداهم . وقد أتى فى سبيل ذلك بأعمال تؤخذ عليه ، وتدل على القسوة ، وإن كانت ليست بالمستغربة فى عصره . فمن ذلك أن أحد الأشراف لزم قصره ولم يأت ليقسم يمين الإخلاص للدولة الصالحة ، لعجزه عن ذلك ؛ فقد كان مريضاً بداء عضال لايقوى معه على الحراك ، فأمر الزعيم بأن يقتل لعدم طاعته ، حتى يكون عبرة لغيره من الأشراف .

وفى ذات يوم دعا ثلاثة من أكبر رجال أسرة أورسينى ، واثنين من أسرة كولونا من بينهم ستفانو زعيم الأسرة ، وتحدث إليهم فى أمر دولته ، فأغلظوا له القول ، فأمر باعتقالهم على أنهم خونة للدولة وعزم على قتلهم ، وأرسل إليهم قسًّا ليعترفوا له اعترافهم الأخير ، وتجمع أهل روما ليروا مشهد الفتك بهؤلاء الأشراف . ولكن الزعيم الشعبى أخذته الرأفة فى اللحظة الأخيرة ، فاندفع يخطب الجمهور فى أمرهم ويلومهم على كراهيتهم للنظام الذى أقامه وتدابيرهم فى الخفاء للقضاء على الدولة ، ثم أعلن الصفح عنهم ، وعينهم قواداً لحماية دولته

مثل هذا العفو لم يكن إلا ليزيد حفيظتهم وكراهيتهم للزعيم ، فاتحدت كلمتهم على مقاومته والسعى للقضاء عليه .

بدءوا يقاومونه فعلا بأن التجئوا إلى ضياعهم ومدنهم الحصينة حول روما وعملوا على منع الأقوات من أن تصل إلى المدينة ، فأخذ القوت يقل فيها ، وعجز عامة الناس عن الحصول عليه ، وأخذ رينزى يعمل على مقاومة من أعلن العصيان

منهم علانية ، وينظم الجنود من أبناء روما لقتالهم . ومن الطبيعى أن يمر على الناس بسبب الضيق نوع من عدم الثقة فى الدولة الصالحة . وشعر رينزى بالعسر المالى حين اضطر إلى تجنيد الجنود من أهل روما ، ففرض ضريبة على الملح ضاق بها العامة ، فلم تعد عبارات الزعيم تؤثر فيهم ، ذلك الزعيم الذى كان مثلهم فقيراً معدما ، وهو الآن ينافس الأشراف فى ثرائهم ويظهر لهم كل يوم فى ثياب الحرير المزركشة بالقصب أو فى دروع مزخرفة بالذهب .

يقال لهم إنهم يقاتلون من أجل الوطن ، ولكنهم لايرون فى تلك الحروب المتصلة مع الأشراف قتالا من أجل الوطن . وللأشراف بعدُ فضائلهم ، فهم إذا ظلموا العامة فإنهم يعرفون فى احتفالاتهم كيف يرضونهم ، وكيف يوزعون عليهم فى سخاء ما سرقوه ونهبوه منهم . وزعيم الشعب لايعرف هذا الفن فى حفلاته ، وهو أجدر فى هذه الحفلات أن يسمى زعيم الكلام .

استغل خصوم رينزى هذا الانقلاب فى عقلية الجمهور كما استغلوا خلافا من نوع آخر أشد خطراً فى ذلك العصر ؛ فمن الطبيعى أن يحدث بين الزعيم القوى صاحب السلطان وبين نائب البابا خلاف على السلطة ، ومن الطبيعى أن ينقل نائب البابا هذا الخلاف إلى المجال الدينى ؛ ففى تصرفات رينزى وبطشه بخصومه ما لايتفق مع سياسة الكنيسة ، وفى أفعال رينزى فى احتفالاته التى كانت مزيجاً من الاحتفالات الدينية والرومانية القديمة ما لايتفق مع الكنيسة ، وفى الآراء التى كان يفوه بها ما لايتفق مع الكنيسة ؛ وقد أدى ذلك كله إلى أن وقّعت الكنيسة عليه عقوبة الحرمان ، فانفض الناس من حوله ، فنزل عن سلطانه لنائب البابا ، وفر من المدينة .

فى شهر يوليه من سنة ١٣٥٠ وصل إلى مدينة براغ رجل فى ثياب راهب ، وقصد إلى قصر لودفيج ملك هنجاريا ، وطلب مقابلته فى أمر خاص ، فوافق الملك على مقابلة الراهب المجهول . فلما مثل الغريب بين يديه تحدث إليه عن راهب يعيش فى مونتشللو اسمه الأب أنچيولا ، وقال : « لقد اختار سفيرين أرسل أحدهما إلى البابا فى أڤنيون ، وأرسل الثانى إليك أيها الإمبراطور . »

فنظر إليه الملك الهنجارى بعينيه الواسعتين وقال له : « إذن تكلم » .

فتكلم الغريب طويلا ، فذكر أن العالم يدخل فى طور جديد تكون فيه سعادة

ويكون فيه رخاء، وتكون فيه عزة للأمم المسيحية. وعرف الملك من الحديث بعض آراء صاحبه فقال: « إنى لأكاد أعرف من أنت ». فقال الغريب: « من تظننى أكون؟ » قال الملك: « أظن أنك الزعيم الشعبى لروما. » فقال رينزى « أجل! إنى كولا الذى كان من فضل الله عليه أن حكم فى سلم وفى عدل وفى حرية، مدينة روما. »

وتحدث كولا لى الملك طويلا عن روما ومجدها القديم وما يريده لها من مجد حديث، وعن الكنيسة وما ينتظر لها من رفعة فى ظل راع جديد يتوج الملك، فيجعله إمبراطوراً وسيداً على بلاد الغرب، ويعيد الزعيم الشعبى إلى روما، فيمد سلطانها، ويصير سيداً على الشرق. وكان الملك يسمع هذه الأحلام والآمال فى صمت، ولكنه أرسل كولا دى رينزى إلى أسقف المدينة، وعلماء الدين كى يباحثهم فيما عزته إليه الكنيسة من أقوال مثيرة اعتبرتها خروجاً على تعاليمها.

أقام كولا رينزى فترة من الزمن فى براغ يتردد على رجال الدين، ويمضى أيامه فى مناقشتهم، وقد أدهش علماء تلك البلاد بخصب تفكيره. وكان لا يعيش عيش التقشف، بل يتبع الألمان فى كثرة أكلهم وشرابهم، ثم نقله الملك إلى حصن على نهر الألب حيث بقى سجيناً عدة أشهر، وكان الجو لا يلائمه، ولم يكن واثقاً من مستقبله، فكان يمضى الوقت فى كتابة الرسائل إلى الملك يرجوه أن يستحث محكمة رجال الدين على النظر فى مسألته، فقرر الملك أن يرسله إلى البابا فى أڤينيون فنقل إليها محروساً.

مثل رينزى أمام محكمة الكرادلة، فلم يطلقوا سراحه كما فعلوا منذ زمن قصير بالملكة چيوفانا ملكة نابولى التى خانت زوجها ثم اشتركت مع عشيقها فى قتله، بل قضوا بسجنه، فوضع فى قلعة من أحصن قلاع القصر مكبلا بالأغلال، وكان الغل مثبتاً فى جدار الغرفة.

ثم حدث فى هذه الأثناء أن توفى البابا القائم، ووقع الاختيار على أسقف أوستيا، فتولى عرش البابوية تحت اسم أنوسنزو السادس، فعفا عن كولا وباركه وعينه مساعداً للكردنيال البورفوزو الذى عهد إليه بتهدئة إيطاليا وإعادة حقوق الكنيسة فى روما.

سافر رينزى إلى بروچيا وأقام فيها بعض الوقت إلى أن تمكن من مقابلة

الكردينال البورفوزو ، وفى حديثه الخلاب طلب إليه أن يعينه قنصلا على روما ، وهو يعرف كيف يعيد إلى الكنيسة حقوقها ، ويعيد الأمن إلى تلك المدينة ، فأجابه الكردينال إلى طلبه ، وعينه قنصلا على روما .

عاد إلى روما فى كوكبة من الرجال ، فقابله أهل المدينة كما يقابل الفاتح وزينت الشوارع والجسور وارتفعت أصوات الهتاف والتهليل إلى عنان السماء . فلقد عرف أهل روما فضله بعد ذهابه ، وذاقوا عذاب الفوضى والظلم . وقبض رينزى على زمام الحكم بقوة وعزم ، وأخذ يصرف الأمور بميزانه الذى لم يكن عدلا كله ، ولكنه فى ذلك العصر كان يعد ميزان العدل . وعاد الزعيم إلى كتابة رسائله وإرسالها إلى الملوك والأمراء كعادته يشرح فيها آماله من أجل روما وإيطاليا ، وما يرجوه لها من رفعة ومجد ، ويستحثهم على مؤازرته فى مقصده .

وحاول رينزى أن يخضع الأشراف للنظام والقانون ، فلم يستجيبوا له ، بل كانوا فى هذه المرة أشد عداء له ، وأكثر اتحاداً على مقاومته ، فعزم على كسر شوكتهم والقضاء عليهم وفى طليعتهم أسرة كولونا .

اشتد رينزى على الأشراف ، وأخذ يقاتل الذين تحصنوا منهم فى حصونهم ، ويهاجم حصون آل كولونا وقراهم ، وسقط فى يديه بعض الأشراف من أسرة كولونا فما رحمهم ، بل نكل بهم تنكيلا ، متهما إياهم بالسرقة والنهب والعدوان . وكان من بين قواد الجيوش المرتزقة قائد كبير جمع ثروة كبيرة من الاعتداءات ومن تأجير عصاباته للأمراء ، وقد استعان رينزى بأخويه على قتال الأشراف فطالبا بزيادة أجرهما فلم يلب رينزى طلبهما ، فدخل أخوهما ضواحى روما غازيا ، وكان رينزى يحاصر حصاراً شديداً مدينة بلسترينا معقل آل كولونا ، فرفع الحصار . فأرسل القائد إلى رينزى رسولا يطلب المصالحة على أن يدفع مبلغاً من المال ، فرضى رينزى وأمنه على نفسه ودعاه لمقابلته ، فما جاء إليه حتى أمر بالقبض عليه وحوكم على أنه قاتل ، وقاطع طرق ، وناهب ، فحكم عليه بالموت وقتل على مشهد جمهور كبير من أهل روما ، وصودرت أمواله جميعاً ؛ فذهب بعضها إلى رينزى ، وذهب بعضها إلى نائب البابا ، وبعضها ذهب إلى خزانة البابا نفسه .

ثم فترت حماسة الجمهور الرومانى المتقلب ، وأخذوا يرمون الزعيم بالظلم والقسوة ؛ فقاتلته الأشراف ليست إلا العمل للقضاء على أبناء روما ، وقتله

قائد الجيوش المأجورة ليس إلا الطمع فى أمواله . وبدلا من أن يجد الرومانيون فى قتل هذا القائد القضاء على عامل من عوامل الفساد فى الحياة الإيطالية ، فإنهم تأثروا لموته ، وعدّوه شهيداً أو كالشهيد . ووجدوا أسباباً أخرى لاستيائهم ؛ فقد زاد رينزى ضريبة الملح كى يتمكن من مقابلة النفقات المتزايدة لجنوده من أبناء روما ؛ فإن هؤلاء أصبحوا لايقبلون الأجور الزهيدة على اعتبار أنهم إنما يعملون لخير وطنهم ، بل طالبوا بأن تكون أجورهم مثل أجور الأجانب الذين يعملون فى خدمة الأشراف . ألم يتغلبوا على الأجانب أكثر من مرة ؟ فلم ينقدون أجوراً أقل منهم ؟

تجمعت الأشياء كما تتجمع سحب الشتاء ، وشعر رينزى بهبوب العاصفة وأخذ الأشراف يستعدون للموقف الفصل ، وفى ذات يوم سمع رينزى فى قصر الحكم صيحة معروفة فى روما : « أيها الشعب ! أيها الشعب ! » وهى صيحة أسرة كولونا المعروفة فى الحروب وإلى جانبها صيحة خطيرة ترتفع من أفواه الجماهير : « ليمت الخائن الذى فرض الضرائب » وكانت الجماهير تهاجم القصر .

وقف الزعيم حائراً ، وفكر فى أن يرتدى درعه ، وأن يخرج مرة أخرى إلى الجمهور ، ويسلط عليهم سحر بيانه ، فارتدى الدرع وخرج إلى الشرفة ، ولكنه قوبل بالحجارة والنبال فارتد إلى الداخل ، وخلع درعه فى سرعة ؛ ولبس ثياباً حقيرة ، وعمد إلى أغطية السرير وربطها وتدلى إلى الشارع من خلف القصر ، وكان الجمهور بقيادة الأشراف يشعل النار فى الأبواب الخارجية للقصر ، فما اجتازها حتى وجد أمامه الأبواب الداخلية ، فأخذ يشعل النار فيها .

سار الزعيم فى طريقه ، وتمكن من اختراق النطاق الأول من الحراس الذى ضربه الثائرون حول القصر ، فما وصل إلى النطاق الثانى حتى عرفه بعض الحراس فقبضوا عليه ، وتصايحوا بأنهم قبضوا على الخائن وعاجلته الطعنات من كل جانب ، فخر صريعاً فى أيدى الجمهور ، وجره أتباع آل كولونا إلى قصرهم فى روما حيث بقيت جثة الزعيم معلقة بضعة أيام إلى أن أمر أعداؤه بدفنه .

وهكذا حدثت مأساة الماضى القريب ، فى ذلك الماضى البعيد ، رينزى الذى وصفه أحد المؤرخين فقال إنه كشهاب لامع فى سماء روما ، أضاء فترة ثم انطفأ ، فأعقب ظلاما .

حسن محمود